

الرقص فوق رؤوس الناس

المهندس سليمان هارون
نقيب المستشفيات في لبنان

مستحيلاً شيئاً فشيئاً تمكن الزعماء من إرساء الفكرة في عقول اللبنانيين ان الثورة ضد الواقع لا تنفع وان الكلام عن التغيير ليس سوى مجرد ترف فكري عند المثقفين وهيجان لا افق له عند غير المثقفين.

الثورة الشعبية الوحيدة التي نجحت في لبنان هي ثورة ١٤ آذار لانه كان لها شعاراً واحداً هو خروج الجيش السوري من لبنان. نجحت بالرغم من تعدد قادتها، لان لها فكراً واحداً ضبط نبض الناس مما اضطر القادة الى اللحاق بالشعب وركوب الموجة ربما غصباً عن العديد منهم.

ما يحصل اليوم لا بل منذ ثلاث سنوات من نزول الى الشارع لم ولن يوصل الى نتيجة، ليس بسبب تعدد الداعين الى هذه التحركات، بل لانه ليس لها هدف واحد واضح فالشعارات متعددة والاتهامات كثيرة ولكن المتهم يبقى مجهولاً. اذ لا يكفي مثلاً الكلام عن الفساد، فالفساد لا يمكن محاكمته وسجنه. بل الفاسد نفسه سيما وان ليس كل من يتعاطى الشأن العام هو فاسد. لقد اضاع الناس لا سيما قادة الحراك المدني فرصة التغيير في الانتخابات النيابية الاخيرة. كم من الذين يكتبون ويتكلمون ضد ما يسمونه "الطبقة السياسية" عادوا والتحقوا بلوائح هذه السلطة كي يضمنوا وصولهم الى البرلمان. الم يكن من الاجدى ان يتفقوا فيما بينهم على شعارات موحدة ويخوضوا الانتخابات على اساسها. لقد اعطى قانون النسبية فرصة تاريخية لناشطي المجتمع المدني كي يحدثوا تغييراً في "الطبقة السياسية". ولكن بدلا من ذلك فقد رأينا كيف ان هذه الطبقة اعادت نفسها، بل ان من كان منها خارج السلطة قد عاد اليها مشكلاً حالة سياسية يستحيل الالتفاف عليها. لقد تمثل الكل في البرلمان الا حركيي المجتمع المدني باستثناء نائب (ة) واحد (ة) نتمنى لها كل التوفيق. لقد تمكن السياسيون بدهائهم العظيم من السيطرة مجدداً على مفاتيح السلطة واخضعوا الناس لمشيئتهم.

البلاد اليوم تقف على حافة واد سحيق والناس في ضياع. غير صحيح ان القادة يعبؤون لشؤونهم لان هؤلاء القادة يعيشون فوق الناس وليس معهم. فالميزات التي يخصصونها لانفسهم معنويًا ومادياً تثبت انهم يعتبرون انفسهم فوق سائر العباد.

هؤلاء القادة لا يمكنهم ان يصلحوا الامور، ففي اصلاح الامور نهاية لقيادتهم. وهم لن يتركوا الناس لتثور فهم يملكون ما يكفي من الحنكة والدهاء لافشال اي تحرك في الشارع، وهم في ذلك متفقون في ما بينهم. هل من طريق للخلاص؟

لست ادري سيما انني لا اؤمن بالتنجيم، ولكن جلّ ما ابتغيه من الذين هم فوقنا الان ان يسيروا على رؤوسنا برفق وان يتوقفوا عن رقص الدبكة عليها واياديهم مشبوكة ببعضها البعض.

"عندما يستعيد اليائسون بعضاً من الامل، هؤلاء الذين في السلطة - الذين اخذوه منهم - يصبحون اكثر خوفاً واكثر حرصاً على مصالحهم المهددة، اكثر قمعاً" د.ازار نفيسي

علي عبدالله صالح، كان يحلو له القول ان حكم اليمن هو اشبه "بالرقص فوق رؤوس الافاعي" هو طبعاً لم يوضح من هم الافاعي، ولكن من المعلوم ان في اليمن عشائر واحزاب وطوائف متعددة وكلها لها رؤساء والارجح انه كان يقصد هؤلاء. الرقص هذا، يتطلب حنكة ودهاء واكثر من ذلك يتطلب شجاعة. وقد انتهى به الامر قتيلاً على المسرح الذي طالما اجاد الرقص عليه.

لبنان هو اكثر بكثير تعددية من اليمن عشائرياً وحزبياً وطائفيًا. وما من احد من رؤساء هذه المجموعات تمكن من حكم لبنان مثلما حكم علي عبد الله صالح اليمن الموحد طوال ٢٢ عاماً وقبلها جمهورية اليمن العربية (شمال اليمن) لمدة ١٢ عاماً. الا ان ما فشلوا فيه افرادياً، تمكنوا من القيام به بشكل جماعي بالرغم من تضارب المصالح بينهم، وابتدعوا نظاماً للحكم غير مسبوق في التاريخ، سموه "توافقياً"، (على ماذا يتوافقون) والخطر من ذلك انهم ارادوا اقناع الناس ان ليس من طريقة اخرى لحكم هذا البلد "التعددي".

جميع بلدان العالم فيها تعددية اثنية ودينية وحزبية الخ... ولكن من نجح منها هو الذي تبنى دستوراً واحترمه مهما كان هذا الدستور ومهما كانت طبيعة الحكم: من اميركا الفدرالية الى الصين وسيطرة الحزب الواحد الى روسيا والنيو ديكتاتورية الى ايران التيقراطية...

لبنان البلد الوحيد الحكم فيه "توافقياً"، وهو قد فشلت ويفشل في كل شيء. ومع ذلك، فقد فرض اهل السياسة انفسهم كقدر لا مفر منه وان البلد لا يحكم بدونهم وصار التغيير

